الفصل الثالث

السمات الفنية لشعر الزهد عند المجان

يختص هذا الفصل من البحث ، بدراسة بعض السمات الفنية والجمالية لشعر الزهد عند المجان ، وإذا كان الفصل الأول اهتم بتوضيح دوافع تحول الشعراء من المجون إلى الزهد ، وانشغل الفصل الثانى من البحث بتوضيح أهم مضامين شعر الزهد عند المجان ، فمن الضرورى أن يكون شاغل هذا الفصل هو تسليط الضوء على بعض السمات الفنية لأشعار هذه الطائفة من المجان بعد توبتهم .

إن هذا الفصل من الدراسة يجيب على تساؤلات تفرض نفسها كثيرًا ، ومنها : هل كان لأشعار الزهد عند المجان سمات فنية خاصة ، تختلف عن السمات الفنية التى عرف بها هؤلاء الشعراء قبل توبتهم ؟ هل كان الشاعر يلتزم منهجًا واحدًا فنيًا فى تناوله الموضوعات وفى طريقة معالجتها وفى صياغتها الفنية حين كان ماجنًا وحين أضحى زاهدًا ؟ ألم يكن لتغير الموضوع ، ولتبدل حال الشاعر أثر فى تغير صياغته ومنهجه الفنى ؟..

إن فى مقارنة بعض نماذج الشعراء فى الحالتين ، المجون والزهد ، إجابة على التساؤلات السابقة ، فلنقرأ بعض أشعار الشاعر فى مجونه ، فى غزله وخمره وعبثه ، ثم نقرأ أشعار الشاعر نفسه ، بعد توبته وإقلاعه عن المجون ، لنرى هل تغيرت طريقة الشاعر الفنية ، بعد ما تغيرت نفسيته ؟.

إن أبرز المجالات التى تبرز فيها هذه السمات الفنية والجمالية ، هى اللفظ والصورة والتكرار والتضمين ، وبعض السمات الفكرية الأخرى مثل الإيجابية أو السلبية ، والتشاؤم أو التفاؤل ، والندم والحزن ، وعلى هذا النحو يدرس الفصل سمات شعر الزهد عند المجان فى ناحيتين :

الأولى : السمات الجمالية ، والثانية : السمات الفكرية .

أولاً - السمات الجمالية :

(أ) اللفظ

تتعلق الدراسة الجمالية بأمور متعددة ، أهمها اللفظ والصورة ، وما يتعلق بهما ، من تصنع أو طبع ، أو سطحية أو جزالة ، أو تكلف أو عفوية ... واللفظ عدة الشاعر الأولى فى التعبير

عن معانيه ، وبهذه الأداة يستطيع الشاعر الفنان أن يخرج فنًا رائعًا ، وفنًا مبدعًا إذا أحسن التوسل بهذه الأداة ، حين يعبر وحين يصور ، ويرسم الشاعر باللفظ المعنى ، ويرسم بالصورة أيضًا ، ويوضح أرشيبالد مكليش فى الشعر والتجربة أهمية الكلمات فى صناعة الشعر فيقول « والشعر لا ينسج من الأفكار بل من الكلمات ، ومعنى القصيدة يثيره بناء الكلمات بأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان ، وذلك التكثيف للمعنى الذى نشعر به فى أية قصيدة أصيلة ، إنما هو حصيلة لبناء الأصوات »[1] .

واللغة أداة الأدب ، ومحققة لكل سماته ، الموسيقية والدلالية والرمزية ، تحافظ من حيث البناء والدلالة على معنى اللفظ القاموسى ، مع الحرص على وضوح نبرة الجرس للصوت ، « والشعر كيفية لغوية خاصة ، يتعامل الشعر مع اللغة العادية بكيفية غير عادية ، ويخالف الشاعر النظام العادى للغة العادية ، ليخلق نظامًا آخر يحقق به موازاة واقعه النفسى والفكرى ، ولا يخالف الشاعر النظام اللغوى العادى مخالفة كاملة ، وإلا لكانت للشعر لغة مختلفة تمامًا عن اللغة العادية ، إن الشاعر لا يخلق كلمات ، وإنما يخلق علاقات ، تخضع عناصر التأليف والنظم فيها للدرس الدقيق »[2] .

إن دراسة اللفظ ، تستوجب دراسة العلائق التى تربطه بغيره ، وتوضح تفاعله مع السياق الذى وضع فيه ، « ودوره فى إتمام الصورة الناجمة عن وضع كلمات معينة بطرق خاصة ، وتعود مهارة الشاعر إلى قدرته على التفاعل مع الألفاظ فى الاختيار والاستخدام والعلاقات الوظيفية – فى التعبير عن المعنى المقصود ، وإثارة الوجدان الخاص ، وقد يكون للشاعر – أحيانًا – لغة خاصة حين يغلب عليه طرائق معينة فى التعامل مع ألفاظ بعينها ، وحين يكرر أساليب يتفق عليها »[3] .

إن دراسة اللفظ فى زهد المجان ، تحاول إثبات علاقة ما ، بين المعتقد والتعبير ، أو بمعنى آخر بين فكر الشاعر وأداته الفنية ، بين ما بدا يؤمن به ، وبين قدرته على تطويع اللغة للتعبير عن هذا المضمون الجديد ، لا ليصور معتقده فحسب ، بل للتأثير فى قطاعات عريضة من معاصريه ، وإقناعهم بوجهته الفكرية فى صورة جمالية ، تكتب لتجربتهم النجاح والذيوع .

وهذه أهم وظيفة للفظ فى زهد المجان ، التعبير عن موقفهم ، وتوضيح أفكارهم ووعظ الآخرين ونصحهم أحيانًا – ومن أجل ذلك كله ، لا يصلح لهذه اللغة غير ألفاظ لها سمة معينة هى السهولة ، فالتعقيد فى اللفظ والغرابة فيه ، وانتخاب مفردات الشاعر من المهجور غير

---

(١) أرشيبالدمكليش : الشعر والتجربة / ٢٣ .

(٢) د. عبدالمنعم تليمه : مداخل إلى علم الجمال الأدبى ١١٣ ، ١٤٤ .

(٣) د. على أبو زيد : الرؤية الفكرية والتشكيل الجمالى فى شعر السيد الحميرى / ٣٢١ .

المستعمل ، ومن المعجمى التراثى ، يحول دون التعبير عن فكره ، ويعوق من حرية حركة معانيه .

ولقد آمن الشعراء بهذه الحقيقة ، وهى ضرورة استخدام الألفاظ السهلة فى تعبيرهم عن توبتهم ، وفى استغفارهم عن ذنوبهم ، وفى كل مضامين زهدياتهم بعد إقلاعهم عن المجون .

إن الشعراء الذين كانوا يعرفون بجزالة اللفظ ، وببذل الجهد الفنى فى تشكيل الصورة ، وفى بناء العبارة ، رأوا من الضرورى أن يتخلوا عن ذلك ، فلجأوا إلى التعبير المألوف فى ألفاظ سهلة ، تجرى جريان الماء ، فلا يصلح للزهد والتعبير عنه ، وللتأثير فى الغير غير ما سهل من اللفظ وخف .

ويمتاز شعر أبى العتاهية فى زهدياته بالسهولة ، ولعلها سمة غلبت على شعر أبى العتاهية فى مجونه وفى زهده ، ولكنه زاد فى سهولة اللفظ وأمعن فى ذلك ، حين بدا يتحول من المجون إلى الزهد ، ويعلل الشاعر أبو العتاهية هذه الظاهرة بقوله : « إن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه »[٤] .

ويعبر أبو العتاهية عن رأيه فى اختيار الألفاظ السهلة حتى يصل رأيه إلى العامة قبل الخاصة ، فنراه يعبر عن المال وعلاقة الإنسان به فى ألفاظ سهلة تصور مذهب الشاعر فى اختيار اللفظ ، كما يبدو فى قوله :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
إلا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه[٥]

ويقول أبو الفرج :« أن أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية ، وكان أبو العتاهية غزير البحر ، لطيف المعانى ، سهل الألفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط المرذول مع ذلك ، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال »[٦] .

ونحن لسنا بصدد الحديث عن شعر أبى العتاهية عامة ، ودراسته الدراسة الفنية ، ولكن ما يهم البحث هو شعره فى الزهد ، وكان الزهد يمثل مع ذلك غالب شعره ، وكانت السهولة هى السمة الفنية الغالبة على شعره فى الزهد ، ويضرب صاحب الأغانى الأمثلة على سهولة شعر أبى العتاهية فى الزهد ، ومنها الخبر الذى قال فيه : « أحمد بن زهير :سمعت مصعب بن عبد الله يقول : أبو العتاهية أشعر الناس ، فقلت بأى شىء استحق ذلك ، فقال بقوله :

---

(٤) الأصفهانى - الأغانى ٣ / ١٦١ .
(٥) الأصفهانى - الأغانى ٣ / ١٣٠ .
(٦) الأصفهانى - الأغانى - ٣ / ١٣٠ .

تـعـلـقـت بـآمـال طـوال أى آمـال
وأقلبت عـلى الـدنيـا مـلحـا أى إقـبـال
أيـا هـذا تجهـز لـ ـفـراق الأهـل والمـال
فـلا بـد من المـوت على حال من الحـال[٧]

ويعلق مصعب على الأبيات السابقة بقوله : « هذا كلام سهل لا حشو فيه ولا نقصان ، يعرفه العاقل ويقر به الجاهل »[٨] . ويقول ابن الأعرابى فى شعر أبى العتاهية « فو الله ما رأيت شاعرًا قط أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضربًا من السحر »[٩] .

ويرى ابن مناذر « إن أشهر المحدثين هذا الخبيث (أى أبو العتاهية) الذى يتناول شعره من كمه »[١٠] .

ويعلق الجاحظ عند سماعه أرجوزة أبى العتاهية ذوات الأمثال ، حين سمع قوله :

يـا للشبـاب المـرح التصـابى روائـح الجنـة فى الشبـاب

فيقول الجاحظ عند سماع « روائح الجنة فى الشباب » أنه له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه »[١١] .

وينشد أبو العتاهية أبياتًا فى الزهد أمام « سلم الخاسر » ، فيقول سلم : « لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، فقال أبو العتاهية ، والله ما يرغبنى إلا الذى زهدت فيه »[١٢] .

لقد ساعد أبا العتاهية فى اختيار السهل من اللفظ ، طبيعته الفنية ، وطبيعة الموضوع الذى أكثر من القول فيه وهو الزهد ، ورغبته فى أن تصل فكرته إلى كل فئات الشعب ، العامة قبل الخاصة ، فأضحت السهولة مذهبه الفنى الذى رأى فيه الشاعر مكانة تفوق مكانة من يعمل جاهدًا من أجل الحصول على الغريب والجزل ..

وكان أبو العتاهية ملتزمًا بهذا الأسلوب فى مجونه ، وفى غزلياته وفى مدائحه ، قبل أن يلتزم بالسهولة فى زهدياته ، وقد يعاب على سهولة لفظه فى مدائحه وفى غزله ، فقد انتقده ابن المعتز

---

(٧) الأصفهانى - الأغانى - ٣ / ١٣٠ .
(٨) المصدر السابق - ٣ / ١٣٠ .
(٩) المصدر السابق - ٣ / ١٣١ .
(١٠) المصدر السابق - ٣ / ١٥٤ .
(١١) الأصفهانى - الأغانى - ٣ / ١٣٠ .
(١٢) المصدر السابق - ٣ / ١٧٣ .

فى غزل له ، فى قوله : « إن غزله لين جدًا مشاكل لكلام النساء »[١٣] ويعلل د . شوقى ضيف على هذا اللين « بملازمته للمخنثين فى مطلع حياته ، وتعرفه على لغتهم »[١٤] .

إن سهولة ألفاظ زهديات أبى العتاهية ساعدته على انتشار زهدياته ، ووصولها إلى أسماع الناس عبر المطربين من الملاحين ، فأخذوا بعض وعظه ، وأنشدوه فى طرقاتهم ، وفى سفنهم ، « وقد غنى الملاحون فى حضرة الرشيد المقطوعة التالية ، فى إحدى نزهاته بدجلة ، فلما سمعها أخذ يبكى ، ومنها :

لـدواعى الخير والشـ ـر دنـو ونـزوح
سيصـير المرء يـومـا جسدا مـا فيـه روح
بـين عينى كـل حى عـلم المـوت يـلوح
كـلنـا فى غـفـلة والـ ـموت يغدو ويـروح
نح على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنـوح
لـتـمـوتـن وإن عـمـ ـرت مـا عمر نـوح[١٥]

لقد اهتم أبو العتاهية باختيار السهل من اللفظ ، حتى يعده د . شوقى ضيف مذهبًا من مذاهب الصنعة الفنية « وهى صنعة أبى العتاهية ، وهى صنعة كانت تقوم على السهولة المفرطة فى اختيار الألفاظ والعبارات ، حتى تقترب من لغة الناس اليومية »[١٦] .

ولقد جنت هذه السهولة على الشاعر أحيانًا ، فقد وقع فى بعض العيوب الفنية ، وحسبت عليه بعض السقطات ، حين اتسمت بعض عباراته الشعرية بالنثرية ، وكادت تفقد الروح الشعرية ، وذلك حين يمعن فى اختيار السهل من اللفظ فى زهدياته - كما أدت إلى ضرب من الابتذال ، حين يكرر ألفاظه ، فى معانى يرددها كثيرًا ، فتقترب ألفاظه فى زهدياته من ألفاظ العامة ، فى حديثهم العادى واليومى ، مما دفع الأصمعى إلى أن يقول « شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى »[١٧] ويقول أبو الفرج « إنه كان كثير الساقط والمرذول »[١٨] .

ومن آثار السهولة فى شعره ، الركاكة التى أصابت مفرداته - أحيانًا - فقد قيل له « كيف

---

(١٣) الأصفهانى - الأغانى / ٤ / ٤٥ .
(١٤) د. شوقى ضيف . الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ١٦٩ .
(١٥) د. على أبو زيد - دجلة والسفينة فى الشعر العباسى . دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - ١٩٨٦ .
(١٦) د. شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ١٧١ .
(١٧) الأصفهانى - الأغانى - ٤ / ٤٠ .
(١٨) الأصفهانى - الأغانى - ٤ / ٢ .

تقول الشعر ؟ قال : ما أردته قط إلا مثل لى ، فأقول ما أريد ، وأقول ما لا أريد ، وكان يقول لو شئت أن أجعل كلامى شعرا كله لفعلت »[١٩] .

ويورد المرزبانى فى الموشح أمثلة على الساقط والمرذول فى شعر أبى العتاهية ، من ذلك قوله :

مات والله سعيد بن وهب رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيت عينى يا أبا عثمان أوجعت قلبى[٢٠]

ويرى د . عمر فروخ أن هذه السهولة « قد أدت إلى عدم الاهتمام بدراسة شعره ، لغلبة الزهد عليه ، ولأسلوبه الذى يرك أحيانًا ، ولمعانيه المكرورة ، واستنادًا إلى هذا نقول أن كثيرًا من شعره قد ضاع »[٢١] .

وكان أبو العتاهية يعتز بمذهبه الفنى ، ويرى أن الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وكان السهولة لا تليق إلا للزهد ، ولا تنفع فى غيره .. وقد دفعته هذه السهولة إلى أن يتعالى على أوزان الشعر العربى ، ويخرج عن دوائرها المعروفة ، وحين يسئل عن ذلك يقول : (أنا أكبر من العروض)[٢٢] .

والشاعر « أبو نواس » ، عرف بالجزالة والرصانة فى ألفاظ مدائحه وتعبيراتها ، ينحو نحو السهولة فى زهدياته ، وفى توبته وفى تلبياته وفى استغفاره ، ولم تكن السهولة غريبة على أبى نواس ، فقد مارسها فى بعض أشعاره الماجنة « حتى تصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب » مثل قوله :

حامل الهوى تعب يستخفه الطرب
إن بكى يحق له ليس ما به لعب[٢٣]

وكان أبو نواس يستخدم اللغة الجزلة فى مدائحه الرسمية ، فيختار لها اللفظ الرصين ، ويستهل مدائحه بطريقة القدماء فى وصف الصحراء والطلل ، بينما كان يجنح إلى السهولة فى اللفظ وإلى التحرر من المقدمات التقليدية فى مجونه . وقد حافظ على سمة السهولة هذه فى زهدياته ، فى شعر التوبة والاستغفار عنده ، ويقول ابن المعتز فى طبقاته : عن هذه الظاهرة بين القوة والجزالة والسهولة واليسر « إنه كان لايقوم على شعره ، وبقوله على السكر كثيرا ،

---

(١٩) الأصفهانى - الأغانى - ٣ / ١٣٠ .
(٢٠) المرزبانى - الموشح - ٢٥٦ .
(٢١) د. عمر فروخ - تاريخ الأدب العربى - الأعصر العباسية جـ ٢ ص ١٩١ .
(٢٢) الأصفهانى - الأغانى - ٤ / ١٣ .
(٢٣) ديوان أبى نواس - المجون - ٧٦٠ .

فشعره متفاوت ، لذلك يوجد ما هو فى الثريا جودة وحسنا وقوة ، وما هو فى الحضيض ضعفا وركاكة »[٢٤] .

ويقول الجاحظ عن ألفاظ أبى نواس « ما رأيت أحدا أعلم باللغة من أبى نواس »[٢٥] فقد كان يسلك مسلك القدماء فى اللفظ ، فى مدائحه وفى طردياته ، بينما يسلك مسلك البساطة فى زهده وفى تلبياته وفى استغفاره . ومن ذلك ما قاله فى زهده ﷺ

يـا طـالب الـدنيـا ليجمعهـا جمحت بهـا الآمـال فاقتصـد
والقصد أحسن ما عملت به فـأسلك سبيل الخـير واجتهد
وأعمـل لـدار أنت جـاعلهـا دار المقـامـة آخـر الأمـد[٢٦]

لقد كانت السهولة من نصيب زهديات أبى نواس ، فقد أراد أن يعبر عن نفسه فى سهولة ويسر ، وأراد أن يظهر للآخرين فكره الجديد ، ومنهجه الذى تبدل وتغير من المجون والعبث إلى التوبة والزهد .. لقد بدأ فى صفحة جديدة اهتم بها بنفسه ، وبالتكفير عن خطاياه ، أكثر مما يهتم بالبحث عن اللفظ والصورة والصياغة . ويبدى أبو نواس اعجابه باللفظ السهل ، ويدعو إلى تجنب التكلف ، ويسأل عن كلثوم بن عمرو العتابى ، وعن العباس بن الأحنف ، أيهما أشعر ؟ فيقول : العتابى يتكلف ، والعباس يتدفق طبعا ، وكلام هذا سهل عذب ، وكلام ذلك معقد كز ، ولشعر هذا ماء ورقة وحلاوة ، وفى شعر ذلك جسارة وفظاظة »[٢٧] .

إن هذه السمة التى ظهرت فى أشعار زهد المجان وهى الاختلاف بين الجزالة والقوة وبين الضعف والركاكة ، يطلق عليها البلاغيون (التفاوت) وهى تتوقف على مستويات شعر الشاعر فى القصيدة الواحدة ، وقد يعنى بها تفاوت البيت الواحد واختلاف ألفاظه المشكلة له ، والاحتمال الأخير يعيبه النقاد ، حين يجمع الشاعر فى بيت واحد بين الكلمة الجزلة والكلمة الركيكة »[٢٨] .

ويقول الثعالبى فى يتيمة الدهر عن التفاوت « أنه اتباع الفقرة الغراء ، بالكلمة العوراء ، فيها قلة التناسب ، وتنافر الأطراف ، وتخالف الأبيات ، يجمع الشاعر بين البديع النادر ، والضعيف الساقط ، بينما هو يصوغ أفخر وأحلى ، وينظم أحسن عقد ، وينسج أنفس وشى ، ويختال فى حديقة ورد ، إذا به يخرج إلى الافراط والاحالة ، والركاكة والتوحش ، واستعمال

---

(٢٤) ابن المعتز - طبقات الشعراء ١٩٥ .
(٢٥) البغدادى - تاريخ بغداد - ٧ /٤٣٧ .
(٢٦) الديوان / ١٩٣ .
(٢٧) ديوان أبى نواس / ٤٠ .
(٢٨) د. على أبو زيد - الرؤية الفكرية والتشكيل الجمالى فى شعر السيد الحميرى / ٣٣٦ .

الكلمات الشاذة ، فمحا تلك المحاسن ، وكدر صفاءها ، وأعقب حلاوتها مرارة لا مساغ لها »[٢٩] .

ويرى الجرجانى أن التفاوت لا يحط من قدر الشاعر ، وأن فى شعر أبى تمام تفاوتا ، كذلك فى شعر أبى نواس ، والتفاوت فى شعر المتنبى لا ينقص من شاعريته ، ولو تأملت شعر أبى نواس حق التأمل ، ثم وازنت بين انحطاطه وارتفاعه ، وعددت منفيه ومختاره ، لعظمت من قدر صاحبنا ما صغرت »[٣٠] .

وقيل لبشار بن برد « إنك لتجىء بالشىء الهجين المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قلت . بينما تقول شعر تثير به النقع وتخلع به القلوب ، مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر السما

تقــول :

ربــابــة ربــة الــبــيــت تــصب الخــل فى الــزيــت

فقال : لكل وجه موضعه »[٣١] .

وقد رأى أبو عبيدة فى شعر ذى الرمة « نقط عروس ، وأبعار ظباء »[٣٢] . وسئل البحترى عن رأيه فى شعر أبى تمام فقال : « جيده خير من جيدى ، ورديئى خير من رديئه »[٣٣] .

إن اختلاف مستويات اللفظ فى شعر أبى نواس بين مجونه وزهده أو بين مدائحة وشعر التوبة لا يعد تفاوتا كما يقصده البلاغيون ، وربما كان فى شعر أبى نواس تفاوت وذلك فى مجونه وعبثه ، وحين تلعب الخمر برأسه ، فيأتى باللفظ الساقط ، أو بالمعنى المرذول ، ولكن أبا نواس حين أقلع عن مجونه ، نحا نحو السهل من اللفظ فى زهدياته ، ليدل على عبقريته الفنية ، فهو يعطى للموضوع ما يناسبه من الكلمات ، ويغطى المضمون بما يلائمه من اللفظ ، فضلا عن كونه لم يخاطب فى زهدياته الملوك والحكام ، ولا طلاب الغريب أو علماء اللغة .

وإذا كان أبو العتاهية يحافظ على سمة السهولة فى اللفظ ، وأبو نواس يجمع بين الجزالة فى بعض فنونه والسهولة فى زهده ، فإن بشار بن برد ، قد حافظ على جزالة اللفظ فى شعر الحكمة عنده ، فقد كانت صنعة بشار فى شعره ، تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية فى الشعر العربى والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة ، فهو

---

(٢٩) الثعالبى - يتيمة الدهر جـ ١ ص ١٤٧ .
(٣٠) الجرجانى - (على بن عبدالعزيز) الموازنة ص ٥٥ .
(٣١) الأصفهانى - الأغانى - ٣ / ١٦٣ .
(٣٢) المرزبانى - الموشح / ١٧١ .
(٣٣) الجرجانى - الموازنة / ١٥ .

الذى نهج لهم هذا النهج من التطور بالشعر العربى تطورا لا تنقطع الصلة فيه بين حاضره وماضيه »[٣٤] .

وحافظ بشار على جزالة لفظه فى شعر الحكمة ، وإذا كان عنده من تفاوت فقد كان بعيدا عن شعر الحكمة ، فاتسم هذا اللون من شعره بما اتسم به شعره الرسمى فى مدائحه .

ولما كان بشار لا يحتل مكانة بين الشعراء الزهاد ، وإنما يستشهد به لما يصدر عنه فى مجونه من قول حكيم ومن رأى صائب أحيانا ، فلم يكن هدفه وصول حكمته أو وعظه إلى العامة ، قدر ما كان إعجابا بفنه ورغبة فى تأكيد عبقريته . فلم يعمد إلى السهل من اللفظ ، ولم يسع إليه .

وقد طغت سمة السهولة فى اللفظ على معظم أشعار الزهاد مثلما رأينا فى شعر ابن يسير ، وابن المعتز ، والناشئ الأكبر ، والسرى الرفاء والحمدونى ، وغيرهم من الشعراء الذين تابوا وأقلعوا عن مجونهم .

ومن السمات الفنية الغالبة على ألفاظ شعر الزهد عند المجان ، انتخاب معظم مفردات زهدياتهم من القاموس الاسلامى . فغلب على ألفاظهم ذكر الجنة والنار ، والموت والقبر ، والصلاح والتقوى ، والنعيم والسعادة ، والثواب والعقاب ، والمصير والفناء ، والحساب والآخرة ، والتوبة والاستغفار ، والندم والذنب ، والتسبيح بحمد الله ، والتلبية والدعاء ، والصوم والحج والاعتمار ، والصلاة والزكاة ، والركوع والسجود ، والخير والهدى ، والصبر والقناعة ، والزهد والوعظ ، والصدق والحق ، والمسجد والمصلى ، إلى آخر تلك الألفاظ التى يشع منها اتجاه الاسلام وروحانيته .

وقد أفاد كل شاعر من هذه المفردات حسب طبيعته وطبيعة موضوعه ، وحسب رؤيته للحياة ، وتقييمه لواقعه ، وحسب دافعه إلى الزهد وإلى التوبة ، فيختار صاحب النفس الخائفة المذعورة المنزعجة ألفاظا توحى بتلك المعانى ، فيكثر من مفردات الموت والفناء والهلاك ، والعظام النخرة والأكفان والنعوش ، مثلما فعل أبو العتاهية ، بينما يعنى غيره بالوعظ والنصح فيكثر من ألفاظ الثواب والعقاب ، والجنة والنار ، والدنيا والآخرة ، وتتوسل طائفة ثالثة ، تهتم بذاتها ، وبتوبتها بألفاظ توحى بهذا الاهتمام الذاتى مثل التوبة والاستغفار ، والخوف والطمع ، والدمع والنحيب ، والحزن والبكاء .

وكان للتوبة ألفاظها ، وكان للاستغفار ألفاظه – أيضا – وكان للزهد كلماته الموحية به ، وعباراته التى تؤكده مثل قولهم « رغيف خبز يابس ، أو كوز ماء بارد ، أو غرفة ضيقة ، أو معزل عن الناس ، ونفس خالية ، واستغناء عن الآخرين ، والذل فى الوقوف بأبوابهم ،

---

(٣٤) د. شوقى ضيف – الفن ومذاهبه فى الشعر العربى / ١٥٧ .

والرضا بالمقدور والمقسوم ، وطلب الرحمة والستر ، والسمو عن الهوى .

وقد حظيت ألفاظ الشعر فى زهد المجان بالعفة والنقاء ، والبعد عن الدنئ من المعانى ، والفاحش من الكلمات .

وتتسم بعض ألفاظ الشعراء فى توبتهم واستغفارهم بالنزعة الخطابية ، وقد بدت هذه النزعة الخطابية عند بعض الشعراء أمثال أبى العتاهية ، وأبى نواس أحيانا – ويدفع الشاعر إلى هذا ما عرف بالارتجال والتكرار .

وقد عاق هذا الارتجال رغبة الشاعر فى تنقية معانيه وانتخاب مفرداته ، فغلبت عليه النزعة الخطابية ، وتوسل الشاعر – أحيانا – ببعض العبارات الخطابية – وتبدو هذه السمة – فى بعض الأحيان من علاقة بعض المفردات بالبعض الآخر .

وتبدو الخطابية فى تكرار الشاعر لكلمات معينة ، فقد يذكر الشاعر الكلمة الواحدة أكثر من مرة فى أبياته ، وقد يبدأ عدة أبيات فى قصيدته ، بعبارة واحدة ، تأتى أول كل بيت ، وذلك ليؤكد معنى ، وليكرر فكرة واحدة معينة ، يلح على إثباتها . ومن هذا ما بدأ به بعض الشعراء أشعارهم بعبارة سبحان الله مثلا ، أو بعبارة الحمد لله ، ويظل الشاعر فى معظم أبيات مقطوعته – إن لم يكن كلها – ملتزما بهذه البداية .

وتغلب النثرية على بعض أشعار زهد المجان ، خاصة ما يتسم منها بالنزعة الخطابية ، وقد يعاب الشاعر على ذلك ، حين يجعل نفسه خطيبا ، أو واعظا يقف على منبر ، ينصح الآخرين ، وربما دفعته المضامين المحددة ، التى أضحى مقيدا بها إلى التكرار أو الخطابية أو النثرية .

ويحاول الشاعر فى ذكاء أن يتخلص من هذه السمات ، فيأتى بألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة ، ولكنها تدور حول الأفكار ذاتها ، ليدفع الملل والسأم ، وليضفى لونا من التجديد على هذه المعانى المكررة .

ومن مظاهر هذه النزعة الخطابية – أيضا – أن يقصد الشاعر ، إلى شرح معنى من المعانى الإسلامية ، فيستشهد بآيات من القرآن الكريم ، بلفظها أو بمعناها . ويقول المرزبانى فى الموشح « إن الشاعر الراعى ، أنشد قصيدته أمام عبدالله بن مروان التى يقول فيها :

أخليفة الرحمن أنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا
عرب نرى لله فى أموالنا حق الزكاة منزلا تنزيلا

فقال عبدالملك : ليس هذا شعرا ، هذا شرح إسلام ، وقراءة آية »[٣٥] وقد أكثر الشعراء فى زهدياتهم من شرح مثل هذه الآيات .

---

(٣٥) المرزبانى – الموشح / ٢٤٨ .

وفى الموشح - أيضا - قول جاء فيه « أن حمادا جاء إلى الكميت ، فقال : اكتبنى شعرك ، قال : أنت لحان ، ولا أكتبك شعرى ، فقال : وأنت شاعر ، إنما شعرك خطب » كما وصف دعبل الخزاعى أبا تمام بأنه « لم يكن شاعرا ، إنما كان خطيبا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر »[٣٦] .

والخطابية تبدو فى بعض أقوال أبى العتاهية ، فى زهدياته ، ومنها :

الحمد لله الواحد الصمد فهو الذى به رجائى ، ومسندى[٣٧]

ويعدد بعض صفات الله - سبحانه وتعالى - فى قوله :

قاهر ، قادر ، رحيم لطيف ظاهر باطن ، قريب ، بعيد[٣٨]

وتبدو الخطابية حين يقول أبو العتاهية :

أين الحماة الصابرون حمية يوم الهياج لحر مختلف القنا
وذوو المنابر والعساكر والدسا كر والحضائر والمدائن والقرى
وذوو المواكب والكتائب والنجا ئب والمراتب والمناصب فى العلى[٣٩]

إن سرعة خاطر الشاعر ، ورغبته فى أن يكثر من القول ، فى وعظ مباشر ، دفعه كل ذلك إلى التكرار ، مما أدى إلى ضعف الابداع الفنى فى كثير من شعره ، واقترابه من النثرية ولغة الحياة اليومية ، وربما كان ذلك - أيضا - نتيجة تزاحم الألفاظ على المعنى الواحد . والنماذج المؤيدة لذلك ، متعددة فى شعر أبى العتاهية ، ولعل من أوضحها ما قاله فى حديثه عن سكان القبور :

أأيتها المقابر فيك من كنا نازله
ومن كنا تاجره ومن كنا نعامله
ومن كنا نعاشره ومن كنا تداخله
ومن كنا نفاخره ومن كنا نطاوله
ومن كنا نشاربه ومن كنا نؤاكله
ومن كنا نرافقه ومن كنا نازله
ومن كنا نكارمه ومن كنا نجامله[٤٠]

فالمعنى واحد ، متكرر ، وقريب مبتذل ، والألفاظ التى صورت المعنى قريبة بسيطة ، هى

---

(٣٦) المرزبانى - الموشح / ٣٠٨ .
(٣٧) ديوان أبى العتاهية / ١٣٤ .
(٣٨) ديوان أبى العتاهية / ١٢٨ .
(٣٩) ديوان أبى العتاهية / ٢٧٠ .
(٤٠) ديوان أبى العتاهية / ٣١٠ .

الأخرى ، فلم يهتم الشاعر بغربلة ألفاظه ، ولم يهتم بتنقية عباراته ، فغلب على مقطوعته النثرية والخطابية ولغة الحياة اليومية .

ومن السمات الأخرى التى حظيت بها ألفاظ شعر زهد المجان ، ما عرف بالتضمين ، وهو الأخذ من القرآن الكريم ، أو من الحديث الشريف ، ومن بعض أقوال الحكماء ، والبلغاء المشهورين . وقد بذل بعض الشعراء جهدا وتكلفا فى تضمين بعض آى القرآن الكريم فى أبياتهم ، وكان الشعراء يتبارون فى ذلك ، ويسأل بعضهم-البعض الآخر ، عن قدرته فى أن يأتى بآيات من الذكر الحكيم فى أشعاره ، أو يأتى ببعض الأحاديث النبوية الشريفة .

ويذكر ابن عساكر - فى تاريخ دمشق[٤١] - حديثا لسليمان بن داود جاء فيه « بينا نحن ذات يوم عند عبدالواحد بن زيادة وأبو نواس حاضر ، فقلنا لبعضنا ، ليختر كل واحد منكم عشرة أحاديث ، فاختاروا ولم يختر أبو نواس فقلنا ، يا فتى مالك لا تختار ، فأنشدنا :

ولقد كنا روينا عن سعيد عن قتاده
عن سعيد بن الكسيب ثم عن سعد بن عباده
وعن الشعبى والشـ ـعبى شيخ بن عباده
وعن الأخيار يحـ ـكيه وعن أهل الوفاده
أن من مات محبا فله أجر الشهادة[٤٢]

ومما جاء فى زهديات أبى العتاهية ، مضمنا فيه بعض آى القرآن الكريم ، قوله :

فى كل ما تلتذ أنفسهم أنهارهم من تحتهم تجرى
ألا إلى الله تصير الأمور ما أنت يا دنياى إلا غرور[٤٣]

ويقول أبو العتاهية - أيضا :

(لله عاقبة الأمور) طوبى لمعتبر ذكور[٤٤]

ويقول :

وإن لكل مطلع لحدا (وان لكل ذى أجل كتاب)[٤٥]

ويحث على الدعاء والطلب من عطاء الله الذى لا ينفذ :

ألا نسأل الله من فضله فإن عطاياه لا تنفد[٤٦]

---

(٤١) ابن عساكر / ت دمشق /٤ / ٢٦٩ .
(٤٢) ابن عساكر - تهذيب تاريخ دمشق جـ ٤ / ٢٧٠ .
(٤٣) المصدر السابق ٢٦٩ .
(٤٤) المصدر السابق ٢٧٠ .
(٤٥) ديوان أبى العتاهية / ٣٢ .
(٤٦) ديوان أبى العتاهية / ١٣٥ .

ويضمن الشاعر بعض أحاديث الرسول عليه السلام ، فى قوله :

ومالك مما يأكل الناس غير ما أكلت من المال الحلال ، وأفنيتا
ومالك مما يلبس الناس ، غير ما كسوت ، وألا ما لبست ، فأبليتا[٤٧]

ومن الشعراء الذين ضمنوا أبياتهم بعض آى الذكر الحكيم ، الشاعر الحمدونى (أبو على اسماعيل بن إبراهيم ، وهو من شعراء القرن الثالث الهجرى ، وفى أخبار أسرته أن جده حمدوية كان صاحب الزنادقة لعهد الرشيد)[٤٨] .

وكان الحمدونى فى مرحلة حياته الأولى « يطلب اللذة ويحب مجالس الأنس »[٤٩] .

والحمدونى « من محبى الخمر وعشاق الطرب والعيش المستطاب »[٥٠] .

ويزهد فى متع الحياة ، ويقلع عن مجونه ، ويسخر من العيش ، ويشكو الدنيا ، التى لم يظفر منها بشئ ، ويقول فى طيلسانه القديم ، مضمنا بعض آى القرآن الكريم :

فهو قد أدرك نوحا فعسى عنده من علم نوح خبره
أبدا يقرأ من العبر (أنذا كنا عظاما نخره)[٥١]

ويقول فى طيلسانه - أيضا - مستعينا بالقرآن الكريم :

فهر كالطور إذ تجلى له اللـ ـه فدكت قواه الأركان

يشير إلى قوله تعالى ، فى سورة الأعراف « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا »[٥٢] وفى الطيلسان يقول - أيضا - :

فإذا ما لبسته قلت سبحا نك محيى العظام وهى رميم[٥٣]

أخذ البيت من قوله تعالى فى سورة يس « قال من يحيى العظام وهى رميم[٥٣] وفى الطيلسان وقدمه ، يشكو الحمدونى الحياة بطريق غير مباشر ، ويضمن فى حديثه حديثا للرسول عليه السلام ، فيقول الحمدونى :

لو أنه بعض بنى آدم كان أسير الله فى الأرض

وأخذ المعنى من قوله عليه السلام ، « إن العبد اذا بلغ تسعين سنة ، كتبت له الحسنات وكفرت عنه السيئات ، وسمى أسير الله فى الأرض »[٥٤] .

---

(٤٧) ديوان أبى العتاهية / ٤١ .
(٤٨) الكتبى / فوات الوفيات / ٢٤ .
(٤٩) ياقوت / معجم الأدباء / ٦ / ١٤٣ .
(٥٠) الحصرى - زهر الآداب ٢ / ١٤٥ .
(٥١) النازعات / ١١ .
(٥٢) الأعراف / ١٤٣ .
(٥٣) يس / ٧٨ .
(٥٤) ثمار القلوب / ٤٨١ .

هذه هى أهم السمات البارزة لألفاظ شعر الزهد عند المجان ، وقد تأثرت بطبيعة الموضوعات ، التى أضحى الشاعر ملتزما بها. كما كانت تصورها حالة الشاعر النفسية المتجددة ، فانتخب الشعراء مفرداتهم سهلة ميسرة غلب عليها أحيانا النثرية والعفوية ، والارتجال والتكرار ، ، والخطابة ، واستمد معظمها من القاموس الاسلامى ، ومن بعض آى القرآن الكريم .

(ب) الصورة فى شعر الزهد عند المجان

الصورة الفنية فى أشعار المجان لها طبيعتها ، وعناصرها ، ووظيفتها ، المعدة لها ، ومن الطبيعى أن اختلاف الموضوعات يؤدى إلى تغيير فى طبيعة الصورة وفى طريقة صياغتها ، مما جعل الصورة الفنية فى زهديات المجان لها أصول ومقومات ووظائف تختلف عنها فى أشعار المجون .

والصورة الفنية فى زهديات المجان ، يدور البحث حول دراسة بعض نماذج لها ، ليتعرف على نوعيتها ، وهل لا تزال موجودة أم اختفت من أشعارهم بعد زهدهم ، أم كانت موجودة بنسبة أقل مما كانت عليه فى أشعار مجونهم ؟ واذا كانت الصورة الفنية موجودة فى زهدياتهم ، فهل كان الشاعر يسلك نفس المسلك الفنى الذى كان عليه فى مجونه ، وهو يشكل صورته ، أم تغير هذا المسلك ؟ وهل أدت الصورة الفنية الوظيفة ذاتها التى كانت تؤديها فى أشعار المجان قبل توبتهم ؟

ولا تحتمل الدراسة استعراض معظم صور الشعراء الفنية فى مجونهم ، وفى زهدهم ، فهى كثيرة متنوعة ، تزخر بالعناصر الفنية المختلفة ، التى وفرها الشاعر لها ، وعمل على إبرازها فى أحسن نسق . سوف يقتصر البحث على التعرض لبعض صور الشعراء الفنية بعد توبتهم ، ليسجل بعض الملاحظات العامة على طبيعة هذه الصور الفنية ..

ومن الأمور الأولية التى تشد الانتباه إلى هذه الصور الفنية ، فى أشعار زهد المجان ، هو قلة عدد هذه الصور بالنسبة إلى أبيات القصيدة بالقياس إلى عددها فى أشعار المجون ، عند الشاعر نفسه قبل أن يعلن توبته . فلا تكاد تخلو مقطوعة ، أو مجموعة أبيات من شعر المجون من عدة صور . بينما قد نعثر أحيانا على مقطوعات فى شعر التوبة والاستغفار والزهد ، قد تخلو تماما من التوسل بأية صورة فنية . وقد يفسر ذلك بانشغال الشاعر بنفسه فى مرحلة التوبة والاستغفار ، بينما كان مشغولا بفنه فى مرحلة مجونه .

لقد كان الشاعر يحاول فى مرحلة مجونه ، تأكيد عبقريته الفنية ، وليلفت نظر ممدوحيه ، ونظر النقاد إليه ، فكان يبذل جهدا غير عادى ، فى تنقيته الألفاظ ، وانتخاب عباراته ، وفى

صياغة الصورة الفنية ، فى تنوع أنماطها ، واختلاف عناصرها ، وتعدد وظائفها ، بينما الشاعر نفسه ، فى حالة توبته واستغفاره ، يقلع عن المجون ، ويكف عن شطحات الخيال ، ويخفف من الأحلام ، وينظر إلى الواقع ، ويعلن توبته ، ويستغفر عن خطاياه ، ويحمد ربه ، ويستعطفه ، ويطلب عفوه ورحمته . فكان الشاعر مهموما مشغولا خائفا قلقا ، فلم يعط للفظ حقه أحيانا ، ولم يهتم بالصورة ، أو بصياغتها غالبا ، وإنما يهتم بأن يأتى بالمعنى القريب ، فى أبسط تعبير ، ومن أقصر طريق ، ليعلن فيه ، قطع صلته بماضيه ، وبما كان فيه .

ولعل من أبرز الأسباب التى تفسر ندرة الصورة الفنية فى شعر التوبة والاستغفار ، التزام الشعراء بالحق والحقيقة ، وتجنبهم الخيال والمبالغة ، فقد تولت عنهم قفزات الخيال ، وأصبحوا يصوغون معانيهم من معين الواقع الصادق ، والحقيقة الظاهرة . لا يلجأون إلى المجاز غالبا ، ولا يصورون من الخيال فى معظم الأحيان ، ويرى بعض النقاد ومنهم الأصمعى أن الجزالة والفخامة فى التعبير والتصوير مرتبطة بموضوعات المجون من خمر وفخر ونساء وهجاء ، وذلك حين كان يعلل رقة شعر حسان فى الاسلام ويرى « أن الشعر نكد بابه فإذا دخل الخير رق ولان » وقد لا نميل إلى هذا الرأى فما أروع الصور التى جاءت فى شعر الاسلام ! ، ولكن العلة تكمن فى اهتمام الشاعر بالبحث عن الصورة أو عدم اهتمامه بذلك . فقد كان مهتما بتوضيح الحقيقة البسيطة غير المقصودة .

ولا يفهم من ذلك غياب الصور الفنية من أشعار المجان بعد زهدهم ، بل كانت موجودة ، حاضرة ، ولكنها قليلة ، لم يسع الشاعر إليها ، وجاءت طبيعيته عفوية غالبا ، بسيطة غير متكلفه ، لم يجنح الشاعر فى العثور عليها إلى الغرابة أو التعقيد ، كما خلت من الصور المتشابكة ، أو الموحية ، التى تحمل أكثر من معنى ، وتفترض من السامع قدرا من الذكاء للتعرف عليها .

ومن هذه الزهديات ما جاء فى قول أبى العتاهية ، ويخلو من صياغة الصور الفنية ، حين قال :

رغيف خبز يابس تأكله فى زاوية
وكوز ماء بارد تشربه من صافيه
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية[٥٥]

وقوله - أيضا :

كل نفس عند ميتتها حظها من مالها الكفن[٥٦]

---

(٥٥) ديوان أبى العتاهية / ٣٠٦ .
(٥٦) ديوان أبى العتاهية / ٢٨١ .

ويقول الباهلى ، حين نسك وترك شرب النبيذ ، لما سأله إبراهيم بن المهدى أن يشرب :

سن وشيب وجهل أمر لعمرك صعب[٥٧]

ويقول أبو نواس فى بعض زهدياته ، التى لم يشغل فيها بالتشبيه أو الاستعارة ، أو الكناية ...

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم[٥٨]

ويقول سعيد بن وهب فى زهده ، وسيره على قدميه ، حتى اعتورتا :

إنما أمشى لأنى مذنب فلعل الله يعفو عن ذنوبى[٥٩]

والنماذج كثيرة ، فى زهديات المجان ، التى تخلو من الصور ، والتى يعبر فيها الشاعر عن المعنى فى بساطة وفى وضوح ، قد تصل به إلى التقريرية أو إلى النثرية والاقتراب من لغة الحياة اليومية ، أحيانا .

والصور الفنية فى زهديات المجان لها طبيعتها الخاصة ، ولها مصادرها المستمدة منها ، ولها وظيفتها المعدة لها . كما أن الشاعر فى زهدياته لم ينس المحسن البديعى ، خاصة الطباق ، الذى أكثر منه ، ليعقد المقارنة بين ما كان عليه ، وبين ما أصبح عليه ، وساعدته المقابلة على تجسيد الاختلاف بين يومه وأمسه ، بين زهده ومجونه ، وبين ذنوبه واستغفاره ، كما أكثر الشعراء من استخدام الأساليب البلاغية ، وخاصة الاستفهام بأغراضه المتنوعة ..

وبدت الصورة ضرورية عند الزهاد الذين لجأوا إلى تكرار المعانى ، وترديدها ، ليجددوا فى صياغة أفكارهم ، ولكنهم - مع ذلك - لم يتكلفوا نسجها ، بل غلب عليها العفوية والطبيعية ، ولكنها أدت دورها فى دفع الملل والرتابة عن هذه المعانى المكررة ، التى تدور فى دائرة واحدة ، فقامت الصورة بلون من التجديد ومن التنويع لهذه الأفكار المستهلكة ، من كثرة نظم الشاعر لها .

ويمكن القول أن الصورة فى زهد المجان ، قد أخذت شكل العناقيد ، فى كثير من الأحيان ، فقد ألح الشاعر التائب على صورة معينة ، فجاء التكرار فى الصورة كما جاء فى اللفظ ، ومن هذه الصور التى أكثر الشعراء نظمها ، صورة الدمع ، وصورة القبر ، صورة النعيم ، أو صورة العذاب .

ومن الطبيعى أن تكون هذه الأنماط ، هى الغالبة على نوعية الصور الفنية فى زهديات

---

(٥٧) الحصرى - زهر الآداب ١ / ٣٣٢ .

(٥٨) مجلة المجلة العربية العدد ٣١ أسامة عانوتى (الباهلى) .

(٥٩) البغدادى - تاريخ بغداد ٩ / ٧٤ .

المجان ، فلم يصور الشاعر كأسا أو جارية أو غلاما وسيما ، ولكنه يشعر بالخوف والندم والحزن لما قدمه فى مجونه ، ويطمع فى ثواب الله ورحمته .

ومن أكثر المضامين فى زهديات المجان ، التى صاغ فيها الشعراء صورا فنية كثيرة ، الشيب ، فقد صوروه أقحوانا يفوح ، وزهرا يتفتح ، ونورا يسطع ، ومن صور الشيب قول ابن المعتز .

رأت أقحوان الشيب لاح وآذنت صلاحات أيام الصبا بوداع[٦٠]

ويقول ابن المعتز فى الشيب أيضا :

تبدل قلبى ما تبدل مفرقى بياض التقى فقد نزعت وأبقيت[٦١]

ويقول أبو نواس فى شيبه ، وفى دمعه الذى يجرى على خده :

الشيب فى رأسى قد نورا والدمع فى خدى قد أثرا[٦٢]

ومن أقوال أبى العتاهية فى الشيب :

لأبكين لفقدان الشباب ، وقد نادى المشيب ، عن الدنيا برحلتين[٦٣]

وفيه يقول أبو العتاهية :

الشيب احدى الميتتين ، تقدمت إحداهما ، وتأخرت إحداهما[٦٤]

ويقول أبو الشيص :

فأقصرت لما نهانى المشيب وأقصر عن عذلى العاذلات[٦٥]

ويتناول كل شاعر صورة الشيب ، من وجهة نظره ، فنرى أبا العتاهية يصور الشيب بالناعى وبالمؤذن بالرحيل ، والمنادى بالفناء ، بينما أبو نواس وابن المعتز يصوران الشيب واعظا ، وناصحا ونذيرا بالعقل والاتزان ، ويتجه بعض الشعراء بصوره إلى الترهيب والتخويف ، بينما يلجأ آخرون إلى الترغيب فى الأمور الحسنة عن طريق صورهم فمنهم من يصور القبر والعظام النخرة ، ومنهم من يصور الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار .

لقد كان للصورة الفنية فى زهد المجان وظيفة ترتبط بخدمة المعنى ، وبتوضيح الفكرة ، ولا ترتبط بغاية جمالية أو بهدف بلاغى ، واستطاع الشاعر أن يوفر لصورته الألوان ، التى تناسبها ، لتظهر فكرته فى الثوب اللائق بها .

---

(٦٠) ديوان ابن المعتز جـ ١ / ٢٣٦ .
(٦١) المصدر السابق / ٦٥ .
(٦٢) ديوان أبى نواس / ٨٦٢ .
(٦٣) ديوان أبى العتاهية / ٤٨٣ .
(٦٤) ديوان أبى العتاهية / ٤٨٩ .
(٦٥) ابن المعتز - طبقات الشعراء / ٧٩ .

ومن هذه الصور البارزة فى شعر أبى العتاهية صورة القبر وصورة الموت ، وقد اشترك معه فى تصويرها أكثر من شاعر ، واختلف كل منهم فى طريقة تناوله ، فترى أبا نواس يجعل من الموت سهاما صائبة تغتال الإنسان .

كل أمرئ تغتاله منها سهام صائبه

ويجعل أبو العتاهية ، الموت علما يلوح بين عينى كل حى :

بين عينى كل حى علم الموت يلوح

ويقول الناشئ الأكبر :

تساقوا جميعا كئوس الحمام فمات الصديق ومات العدو

ويصور أبو العتاهية القبر وهويأكل الأجساد المنعمة ، ويحولها إلى جماجم وأعظم نخرة .

وأكلت أجسادا منعمة كان النعيم يهزها نضره

ويستخدم الشعراء أحيانا التشخيص فى تصويرهم ، فيتخيل أبو العتاهية القبر يسأله فيجيبه عن ساكنيه :

إنى سألت القبور أحبتى بعد الجذالة والسرور

ويسأله أيضا فيجيبه :

إنى سألت القبر ، ما فعلت بعدى وجوه فيك منعفره
فأجابنى صيرت ريحهم تؤذيك بعد روائح عطره[٦٦]

واستخدم الشعراء فى صورهم بعض ألوان البديع المتنوعة ، وكان أكثرها شيوعا فى زهدياتهم « المقابلة » ، لتصوير ما هو كائن وما ينبغى أن يكون عليه ، وقد عبر الشعراء عن طريقها ، عن موقفهم فى الحياة ، وعن ماضيهم وعن حاضرهم . ولم يكن التضاد فى زهدياتهم حلية لفظية ، يهدف الشاعر إليها ، ولكنه أكثر منها ليصور حالتين مختلفتين من حالاته ، الأمس واليوم .

ولم يسيطر على التضاد فى تصويرهم غرابة أو غموض ، بل اتسم بالبساطة والوضوح ، وقد جاء فى المعنى دون أن يأتى فى اللفظ ، ويفهم من سياق التعبير ، وقد أدى الشاعر به ، وظيفة فنية فى توسيع الفجوة بين الارتفاع والانحدار ، وبين الذنوب والحسنات ، بين أهل المجون وبين أصحاب التقوى والصلاح .

ويتآلف التضاد مع الاستعارة والتشبيه وغيرهما من ألوان التصوير ، فى التعبير عن رؤية الشاعر للحياة ، وفى تحديد موقعه منها ، وتجسيد موقفه فيها ، ومن هذه النماذج التى وردت فى بعض زهدياتهم ، قول أبى العتاهية :

---

(٦٦) سبق الاشارة إلى هذه الأبيات ، فى الأماكن الأولى من البحث .

لعمرك ما الدنيا بدار بقاء كفاك بدار الموت دار الفناء
حلاوتها ممزوجة بمرارة وراحتها ممزوجة بعناء[٦٧]

ويقول أيضا :

كانوا ملوك مآكل ، ومشارب وملابس ، وروائح ، عطرات
فإذا بأجساد عرين من الكسا وبأوجه فى الترب منعفرات[٦٨]

وقد جاءت المقابلة فى صور أبى العتاهية ، للمقارنة بين الأحياء والأموات ، وبين النعيم والبلى ، ولم تكن المقابلة عنده بين ذنوب الأمس ، وتوبة اليوم ، أو بين جهالات الصبا واتزان الشيب ، ولكنها كانت بين الحياة والموت ، وبين العمران والخراب ، وبين القصور والقبور .

ويعقد الشاعر ابن المعتز المقارنات بين حالتين تختصان به ، بين المجد والعز ، وبين الضياع الذى فرض عليه ، ولذلك يقابل فى اللفظ والصورة بين الرخاء والشدة ، فيقول ابن المعتز :

لو أطقنا الصبر عند الرزايا ما عرفنا شدة من رخاء

ويقابل بين النعيم والمصائب فى قوله :

أنت علمتنا على النعم الشكر وعند المصائب التسليما
قد رضينا بأن نموت ونحيا إن عندى فى ذاك حظا عظيما

وفى شعر الحكمة فى زهديات المجان ، تلعب المقابلة دورا جديدا ، فتقارن بين صفات الخلق الحميد ، وصفات الأخلاق السيئة ، وبين العبودية والحرية ، وبين التقوى والفجور ، وبين الحلم والجهل ، ومن هذا قول بشار :

والصدق أفضل ما حضرت به ولربما ضر الفتى كذبه[٦٩]

ويطابق أيضا بين الشريف والوضيع ، فيقول :

يحى الشريف يشين منصبه وترى الوضيع يزينه أدبه[٧٠]

ويطابق بين الصحيح والأجرب ، فى قوله :

واحذر معاشرة الدنئ فأنها تعدى كما يعدى الصحيح الأجرب[٧١]

ويقول أبو نواس مطابقا بين الصمت والكلام :

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام[٧٢]

---

(٦٧) ديوان أبى العتاهية / ١٨ .
(٦٨) ديوان أبى العتاهية / ٣٢ .
(٦٩) الأبيات أشار البحث إليها فى موضع سابق .
(٧٠) ديوان بشار ١ / ٢٧٥ .
(٧١) ياقوت - معجم الأدباء ١٢ / ٨ .
(٧٢) ابن عساكر - ت دمشق / ٢٧٦ .

لقد أدى التضاد من طباق ومقابلة دوره المُعَدَّ لَهُ فى زهديات المجان ، ولم يأت على وتيرة واحدة ، ولم يكن هدفا فى ذاته ، بل عبر الشاعر به عن رؤيته وعن موقفه الخاص ، فرأينا أبا العتاهية يقابل بين الحياة والموت ، وابن المعتز يقابل بين الشدة والرخاء ، وأبا نواس يقابل بين الأمس واليوم . وقد أظهر التضاد الفوارق الشاسعة بين الضدين ، وأبرز الخطوط الفاصلة بين الطرفين ، ولم يغلب عليه غرابة أو غموض ، ولم يأت من أجل حلية لفظية ثانوية ، أو للتلاعب بشكل من أشكال البديعيات .

ولعل بكاء الشعراء على شبابهم ، وتصويرهم لشيبهم كان من أبرز الموضوعات التى أدى فيها التضاد دوره فى زهديات المجان .

ولم يهتم الشعراء فى زهدياتهم بألوان البديع الأخرى قدر اهتمامهم بالتضاد ، فندر الجناس أو انعدم ، ولم يكن هدفهم - كما ذكر - إبراز الصنعة الضمنية ولكن الهدف كان التعبير عن الفكرة الجديدة التى أصبحوا مشغولين بها ، فكرة التوبة والاستغفار ، والاقلاع عن المجون والزهد فيه .

ولعلنا نجد المستوى الفنى لزهديات المجان يقل درجات عن مستواهم الفنى فى مجونياتهم ، فقد أمدهم المجون بحرية فى التعبير ، وبطلاقة فى التصوير ، وبعبقرية الخيال ، فتخطى الشاعر حدود الحقيقة ، ولم يلتزم بالصدق ، ولم يتمسك بالواقع ، بينما التزموا بالصدق وتمسكوا به فى زهدياتهم ، فضلا عن اهتمامهم بتنقية اللفظ ، وتجنبهم للفحش والإسفاف وقد جاءت معانيهم سامية راقية ، على حساب المستوى الفنى فى بعض الأحيان .

إن هذه الظاهرة تنسحب على هذه الطائفة من الشعراء التائبين وليس معنى ذلك ، أن الفحش يولد الخيال ، وأن المجون يفجر طاقات الإبداع ، وأن التصوير مرتبط بما سقط من التعبير ، ولكنها ملحوظة ترتبط بهؤلاء الشعراء الذين أسرفوا فى القول ، فى الخمريات والغلاميات ثم تابوا واستغفروا ، فانشغلوا بذواتهم ، أكثر من انشغالهم بتعبيراتهم وتصويرهم الفنى .

وإذا كان للصورة الفنية وظائف تحقق جوانب الفائدة والامتاع ، فإن جانب الفائدة فى زهديات المجان طغى على جوانب الامتاع الفنى ، وإذا تحقق جانب الامتاع ، فإنه بقدر بسيط ، وغير مقصود ، وعفوى طفيف . وفى معظم الحالات التى لجأ فيها الشعراء فى زهدياتهم إلى التصوير ، قامت الصورة بأداء دور أساسى فى تحريك المعنى وتشكيله ، بحيث لا يمكن الاستغناء عنها ، فلم تكن كمالية ثانوية ، بل جاءت حين جاءت أصلية جوهرية . وإذا استغنى عنها فإن المعنى يهتز ، والفكرة لا تكتمل ، ولاتتضح .

إن الصورة فى زهدياتهم - مع قلتها - عملت على سحب خيوط الأفكار إلى الأمام ، وعلى

حيوية الفكرة وبعدها عن الجمود ، فلم تكن للزينة ولتأكيد المعنى ، ولكنها كانت للتعبير وللأداء .

ومن العسير الفصل بين الفائدة والمتعة فى وظيفة الصورة الفنية ، ويقول صاحبا نظرية الأدب « ولا يمكن الحكم على وظيفة صورة بأنها جلبت للفائدة دون أن تمتع ، أو أن تؤدى وظيفتها فى الامتاع ، من غير أن يكون وراءها إفادة وتجسيد لتجربة وتوضيح فكرة ، فالفائدة والمتعة لا يجوز أن تتعايشا فقط بل يجب أن تدمجا »[٧٣] .

ومن أظهر أدوار الفائدة التى أدتها الصورة الفنية فى زهديات المجان ، تأكيدها على الجانب الأخلاقى ، وتسليط الضوء على المثل الإنسانية العليا ، وهى لم تهدف إلى الوعظ المباشر ، فأدت هذا الوعظ بطريق التصوير الفنى ، كما نجحت الصورة الفنية – أيضا – فى زهديات المجان ، فى إثارة الانفعال ، وفى تحريك المشاعر ، وفى السمو بالأفكار ، وفى الارتقاء بالقيم ، وتطهير العواطف .

يقول د. مصطفى ناصف عن أداء الصورة لهذا الدور الأخلاقى « إن المشاعر التى يثيرها الفن ، والتجارب التى ينقلها ، أكبر عمقا وسعة وشمولا واستيفاء وكمالا من أن يدل عليها لفظة المتعة ، وهذه الصورة أكثر كمالا من أصلها لأنها تلم ما بدا مبعثرا من عناصر ، وتوضح ما بدا غامضا فتراه »[٧٤] .

ولقد ارتقت وظيفة الصورة فى زهديات المجان – مع قلتها – بقدر صدقها ، وبقدر تجنبها الزيف وخداع التعبير ، ولا يعنى بالصدق النقل الحرفى لمعطيات الواقع ، أو التصوير الألى لعلاقته ، بل يعنى بالصدق صدق الشاعر نفسه ، فيما ينقله »[٧٥] .

ولم تخل الصورة الفنية فى زهدياتهم من أداء دورها الجمالى ، فى أضيق حدوده الممكنة ، وقد بدا ذلك فى طرافة التصوير ، وفى حسن التشكيل ، وفى القدرة على نسج الخيوط المتآلفة فى توازن إيقاعى جميل ، فأضفت على المعنى طرافة وابتكارا ، وذلك حين ضاقت الدائرة حول الشعراء فى تعبيرهم عن معانى مكررة معادة ، « والصورة لا تغير من طبيعة المعنى ذاته ، ولا تغيره إلا بطريقة عرضها له ، وكيفية تناولها للمعنى ، وطريقة تقديمه ، لأن المعنى العادى المجرد لا يحدث لذة ، لأنه يقرر للمتلقى ما هو معروف بأسلوب تقليدى »[٧٦] .

---

(٧٣) أوستن وارين – رينيه ويليك – نظرة الأدب – ص ٣٢ .

(٧٤) د. مصطفى ناصف – دراسة الأدب العربى – ط . الدار القومية للطباعة والنشر ص ٥٦ .

(٧٥) د. على أبو زيد – الصورة الفنية فى شعر دعبل الخزاعى – دار المعارف ط ٢ سنة ١٩٨٤ ص ٤١١ .

(٧٦) د. على أبو زيد – الصورة الفنية فى شعر دعبل الخزاعى – ط ٢ / ٤٢٣ .

(جـ) البناء الفنى لزهديات المجان

من النادر أن ينظم الشاعر قصيدة كاملة فى الزهد ، إلا اذا كان منقطعا لهذا اللون من الشعر ، ومعروفا به ، ومتخصصا فيه ، وقد صنع أبو العتاهية معظم مقطوعاته خالصة فى الزهديات ، بينما جاء الزهد فى أشعار غيره ، على هيئة أبيات قليلة ، أو فى مقطوعات قصيرة .

وقد وضحت المقدمة الزهدية فى بعض مطالع زهديات أبى العتاهية ، وتعد تلك المقدمة من الألوان المبتكرة فى مقدمات الشعر فى العصر العباسى ، فلم يفتتح الشاعر قصيدته بالطلل أو الخمر أو الغزل ، ولكنه افتتحها بالتوبة والاستغفار ، وبالدعوة إليها .

ولعل هذه المقدمات الزهدية لم نعثر عليها عند غير أبى العتاهية من الشعراء المجان التائبين ، وذلك لسبب بسيط لأن أبا العتاهية نظم قصائد كاملة فى الزهد وفى الدعوة له . وقد امتزجت المقدمة عنده ، امتزاجا فنيا وفكريا مع أبيات القصيدة كلها فأضحى من الصعب التفريق بين المقدمة والموضوع ، فالمقدمة فى الزهد ، والموضوع فى الزهد ، والخاتمة بعض الحكم التى تدعو إلى الزهد ، وتحبذه وتؤيده .

وربما نأخذ البيت الأول وما يليه من القول ، باعتباره افتتاحا أعده الشاعر لقصيدته أو لزهديته ، وهو افتتاح يغلب عليه - أحيانا - التصريع .

ومن الطبيعى أن يختلف الحال مع الشعراء الآخرين ، فقد جاء الزهد عندهم فى أبيات معدودة ، ولكنها متصلة ومتتالية ، تأتى فى مكان واحد غير مبعثرة ، بينما جاءت الحكم والأمثال متناثرة غير متصلة .

ولم يكن من المستحسن أن يجمع الشاعر بين أبيات الزهد وبين بعض فنون الشعر العربى الأخرى ، التى لا تتفق وطبيعة الزهد والدعوة إليه ، وكانت الموضوعات التى يمكن أن يدمج الشاعر بينها وبين توبته ، البكاء على الماضى ، الندم والحزن والخوف وتصوير الشباب والشيب ، والشكوى من الدهر وكلها موضوعات تفجر التوبة ، وتؤدى إلى الزهد .

وقد يجمع الشاعر بين زهده وبين رؤيته فى الحياة ، التى اتسم مسلكه فيها بالقناعة والرضا ، فيدعو إلى التعقل والاتزان ، ويدعو إلى الصبر والتحمل .

ولقد جانس الشاعر مجانسة فنية تامة ، بين أبيات الزهد أو التوبة والاستغفار وبين أغراض القصيدة الأخرى ، ووافق بين موضوعاتها لتتفاعل مع دعوته التى يدعو إليها .

ومن الطبيعى ألا تليق موضوعات المجون مع هذه الدعوة الجديدة ، ففى ذلك دلالة أكيدة على تصنع الشاعر وتكلفه دعوى الزهد .

ثانياً : السمات الفكرية لشعر الزهد عند المجان

تفاوت زهد المجان بين اليأس والأمل ، وبين التشاؤم والتفاؤل ، وبين السلبية والايجابية ، وزهد المجان لم يتعد حدود التوبة والاستغفار ، ولم يتخط درجات القناعة الأولى ، فلم يتوغل فى معانى الزهد ، ولم يتعمق فى دعوى الزهد تعمق الزهاد المنقطعين له .

فلم يصل الشعراء بدعواهم إلى الصوفية ، غير رابعة العدوية ، التى كانت قد أجبرت على المجون إجبارا ، ثم تخلت عنه ، وتابت واستغفرت ، وزهدت وتصوفت ، وأفرزت أقوالا تنم عن أفكار وآراء واعتقاد ناضج .

إن الزهد الذى تدعو إليه الصوفية ، يختلف عن الزهد الذى سلكه المجان من الشعراء بعد توبتهم ، إن الزهد فى أشعارهم توبة واستغفار ، وندم وشكوى .

الزهد عندهم قناعة فى ملذات الحياة ، وتجنب شهواتها . إنه اعتراف بالذنب وندم عليه ، وطمع فى رحمة الله وغفرانه .

ويرى عبدالرحمن الوكيل « أن الزهد الذى تبشر به الصوفية ليس من شعائر الإسلام ، ولا من شرعيته فى شئ ، مهما حاولت الصوفية توشيته ، ليبدو لضحاياها شعيرة دينية سامية »[٧٧] ويرى أيضا « أن الزهد عندهم تحقير الشئ ، والتهوين من شأنه فى اللغة التى شرفها الله ، فنزل بها كتابه ، وبهذا المعنى ورد فى القرآن (وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين »[٧٨] فمعناه تحقير نعم الله ، والتهوين من شأنها الأعظم » .

ويرى فى الزهد الذى يزعمونه القضاء على الفرد ، وعلى قوة الجماعة الاسلامية ، ففيه صرف للهمم عن الجد ، والسعى فى سبيل الخير للفرد والجماعة » .

لقد حمل معنى الزهد فى أشعار المجان التائبين معنى التقوى ، ومعنى الأخذ بشرائع الدين ، والتمسك بها ، بعد الاسراف فى الذنوب . والإفراط فيها .

ولم يكن مصدر الزهد فى شعر المجان التائبين أجنبيا أو فلسفيا ، أو مستمدا من ثقافات غير عربية ، أو من دعاوى غير إسلامية ، إنما الأمر كان أبسط من ذلك كله ، فلم يكن الماجن التائب ناصحا أو واعظا أو فيلسوفا أو متكلما ، إنما كان مسلما تائبا مستغفرا ، مقرا بذنبه نادما عليه ، استمد دعواه من القرآن الكريم ومن الحديث الشريف ومن أقوال الأتقياء ومن تجاربهم الذاتية التى مروا بها ، فدعوا إلى التقوى ودعوا إلى التمسك بها ، عملا بقوله تعالى :

---

(٧٧) د. عبدالرحمن الوكيل – هذه هى الصوفية – دار الكتب العلمية – ١٩٧٩ الثانية – ١٣٦ .

(٧٨) سورة يوسف / ٢٠ .

﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ، إن كنتم مؤمنين ﴾[٧٩] وقوله تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾[٨٠] وقوله تعالى : ﴿ من يتق الله ، يجعل له من أمره يسرا ﴾[٨١] وقوله تعالى : ﴿ فمن اتقى وأصلح ، فلا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ﴾[٨٢] وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[٨٣] وقوله تعالى : ﴿ بلى من أوفى بعهده ، واتقى ، فإن الله يحب المتقين ﴾[٨٤] وقوله أيضا ، سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ﴾[٨٥] .

لم يصل الزهد فى أشعار المجان التائبين إلى دعوى المانوية ، ولم يستفد منها أو يتأثر بها ، فقد كان مانى يوصى أتباعه بالزهد المسرف فى الغلو ، فيأمرهم : « بعدم الزواج ليفنى العالم ، فيستطيع الرب التخلص من طبيعة الشر الكامنة فيه »[٨٦] ويتحدث جولدزيهر عن أثر الزهد الصوفى فى تغيير النظر إلى المثل العليا للمسلمين »[٨٧] وقد خلت زهديات المجان من هذه الدعوات والأباطيل المخالفة لروح الاسلام وشرائعه ..

بين زهد أبى العتاهية وزهد أبى نواس

اختلفت الآراء حول تقييم زهد أبى العتاهية ، فقد أتهم بالخروج على تعاليم الدين الإسلامى – أحيانا – والتحقير من شأن الدنيا ومتعها ونعيمها ، كما وصف بالخداع والزيف ، والكذب فى دعواه .

إن اتصال أبى العتاهية بالثقافات المختلفة فى عصره ، وبحركة الزهد ، فضلا عن استعداده الفطرى ، جعل منه داعيا إلى الزهد ، فأكثر من النظم فيه ، مما جعل الآراء تختلف حول زهده ، ومدى صدقه ، ومدى الايمان به ..

ويغلب على زهد أبى العتاهية تلك المسحة الكئيبة اليائسة ، وتصل إلى حد السلبية والانهزام ، فهو يصور الحزن والخوف ، والموت والقبر ، أكثر من تصويره التوبة والندم

---

(٧٩) الأنفـال / ٨ .
(٨٠) الطلاق / ٤٠٢ .
(٨١) الطلاق / ٤ .
(٨٢) الأعراف / ١٣٥ .
(٨٣) الأعراف / ٧ / ٩٦ .
(٨٤) آل عمران ٣ / ٧٦ .
(٨٥) النحل ١٦ / ١٢٨ .
(٨٦) الوكيل – هذه هى الصوفية / ١٣٩ .
(٨٧) جولدزيهر – العقيدة والشريعة / ١٩٥٤ .

والاستغفار ، كل ذلك فى لحن حزين ، وفى أسلوب بسيط ، يقربه من النثرية والابتذال ولغة الحياة اليومية . والتشاؤم يختلف عن الزهد ، فالتشاؤم فى شعر ابن الرومى يبعد عن الزهد تماما ، مع أنه كان يتغنى مشاعر الشعب فى وعظه وفى تصويره للزهاد ، مع ان ابن الرومى لم يكن واعظا ولا زاهدا ، فالزهد انصراف عن الدنيا ومثلها الزائلة ، والتشاؤم نقمة على الحياة ، وعدم الاحساس بجمالها ، إن التشاؤم يصور الحياة خرابا وسوادا .

وفى زهديات أبى العتاهية لون من التشاؤم ، خاصة حين يرى ما يولد للموت ، وما يبنى للخراب .

ويرى أبو الفرج فى مذهب أبى العتاهية « إنه كان يقول بالتوحيد ، وأن الله خلق جوهرين متضادين لا من شئ ، ثم أنه بنى العالم هذه البنية منها ، وأن العالم حديث العين والصنعة لا محدث له إلا الله ، وكان يزعم أن الله سيرد كل شئ إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان »[٨٨] .

ويقول أبو الفرج - أيضا - أنه كان يقول بالوعيد وتحريم المكاسب ، ويتشيع بمذهب الزيدية المبتدعة ، لا ينتقص أحدا ، ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان ، وكان مجبرا »[٨٩] .

لقد حمل أبو العتاهية أكثر مما يحتمل ، ولم نعثر فى شعره ما يدل على الجبر أو غيره من هذه المذاهب ، حتى ليقال أن أبا العتاهية « مذبذب فى مذهبه ، يعتقد شيئا ، فإذا سمع طاعنا عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره » وربما كان هذا التذبذب فى آرائه الفلسفية التى نسبت إليه ، أو نسب إليه أنه يعتقد بها ، ولم يكن متذبذبا فى زهده أو فى توبته أو فى دعوته ، وقد أجبره الرشيد على التخلى عن زهده ، ولم يكن الشاعر مقتنعا بهذا الخروج .

ومن الآراء التى قيلت حول زهد أبى العتاهية ما يعلل به[٩٠] د. خلف الله زهد أبى العتاهية ، « بحرمانه الذى أدى إلى تنسكه ، وأن صدمته فى حبه لعتبه هى نقطة التحول الحقيقية فى ورعه » .

ويرى د. أنيس المقدسى « أن أبا العتاهية قام ينشد أناشيد الدين دون أن يتفنن فى تطبيقها على الحياة العملية » ويشك المقدسى فى زهد أبى العتاهية ، ويرجع شكه إلى سيرة أبى العتاهية الأولى الماجنة ، وحرصه على المال ، وما عرف به من بخل ، وتبرم الناس من وعظه[٩١] .

---

(٨٨) الأصفهانى - الأغانى ٧ / ١١٣ .
(٨٩) الأصفهانى - الأغانى ٨ / ٩٣ .
(٩٠) خلف الله - دراسات فى الأدب الاسلامى / ٨٥ .
(٩١) أنيس المقدسى - أمراء الشعر العربى / ١٢٢ .

ومن الباحثين الذين لم يقتنعوا بزهد أبى العتاهية ، محمد جابر عبدالعال ، فقد تحامل على أبى العتاهية وعلى زهده فى حركات الشيعة المتطرفين ، إذ يقول : « إن تحول الأدب من المجون إلى الزهد كان من أثر السياسية العنيفة التى اتبعها العباسيون مع الزنادقة ، فقد كان من أثر هذه السياسة التى انتهجها بنو العباس أن اختفت تلك الصراحة التى جعلت الشاعر يلائم بين شعره ونفسه ، وأخذ الأدب يتلون ليرضى الحاكم ، ولبس الأدب ثوب الخداع ، وانتقل من التعبير عن اللذة ، واقتحام الحرام إلى الدعوة إلى التقشف والزهد ، ولكنه تقشف وزهد لا يصوران نفسا آثرت الباقية على الفانية ، وإنما يصوران مذاهب اتخذت هذا اللون من الحياة لتخدع الناس عن حقيقة أمرها ، وما تبطن من بغض وكراهية للإسلام ، وكان يحمل لواء هذا الأدب الخادع أبو العتاهية » ويزداد تحامل جابر عبدالعال على أبى العتاهية حين يتهمه بأنه كان زنديقا يتخفى فى ثياب زاهد »[٩٢] .

ويتفق مع عبدالعال فى هذا الرأى ، عبدالله الطيب المجذوب[٩٣] ، فيقول فى المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها « لقد عرف أبو العتاهية بالنفاق ، فقد كان يعيش عيشة مخالفة لدعواه ، بينما يرى د. خلف الله أن زهد أبى العتاهية مستمد من جداول الحياة الاسلامية العربية ، وأن بعض أشعاره لا تطابق روح الإسلام ، فقد زاد فى تصوير زوال الدنيا ، وغرورها وباطلها ، وزاد فى تصوير هول الموت ووحشة القبر ، ويرى أنه متشائم يخاف الموت ، وهذا يخالف الإسلام .

ويرى د. هداره أن زهد أبى العتاهية ، يدور حول الانسان سعيه ، وماله ، وهو زهد يهدف إلى تعليم الناس حقيقة الحياة .

ويعود د. خلف الله[٩٤] مرة أخرى ، فيرى أن أبا العتاهية يبدو من خلال زهدياته « إنسانا بما تستلزم الانسانية من مظاهر النقص والكمال ، وإن زهده ليس فيه شطحات ، ولكنه قريب من واقع الحياة اليومية ، لا يمنع صاحبه أن يعيش وأن يجمع المال ، ويؤيد د. هداره هذا المفهوم تأييدا تاما ، ويرى « أنه شاعر زاهد حقا ، فيه عناصر صوفية واضحة ، وهو بعد أن تاب وقطع صلته بحياته اللاهية العابثة ، لبس الصوف ولم يتسفل ، ولم يترك فريضة من فرائض الدين أو الخلق »[٩٥] .

وفى الحقيقة فإن شعر أبى العتاهية يصور زهده خير تصوير ، وقد يعاب على مبالغته فى هجر الدنيا ، وفى مغالاته فى التحقير من شأنها ، وفى ذلك ما يخالف روح الإسلام ودعواه ، كما يبدو

---

(٩٢) محمد جابر عبدالعال - حركات الشيعة المتطرفين ١١٨ .

(٩٣) عبدالله الطيب المجذوب - المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ٢ / ١٦٧ .

(٩٤) د. خلف الله - دراسات فى الأدب العربى / ٩٨ .

(٩٥) د. هداره - اتجاهات الشعر / ٣٠٣ .

تشاؤمه فى تصويره القبور ومناجاة سكانها ، وتصوير حالهم داخلها . ومن جوانب زهده الايجابية دعوته إلى التقوى وإلى الصالح من الأعمال ، والدعوة إلى القناعة وتجنب السعى وراء ملذات الحياة وأطماعها .. كما أنه يصور الجزاء والثواب والحساب والعقاب ، كما أبدى توبة حسنة ، وتغنى بالصبر والخلق الكريم .

ولم يكن أبو العتاهية - كما قيل عنه - مهملا آخرته ، لا يصورها فى زهده ولم يذكر غير الموت والفناء ، بل كثيرا ما أشار إلى الآخرة وإلى يوم الحساب فى شعره ، كما أنه لم يكن صوفيا لأنه لبس الصوف وتنسك فلم نجد غير هذا الخبر المروى عن ذلك اللباس فى تلك الحادثة مع الرشيد ، ولكن زهدياته فى أشعاره وسلوكه فى حياته لا يصلان به إلى درجة الصوفية والمتصوفين .

أما عن زهد أبى نواس ، فيرى د. طه حسين[٩٦] « أن أبا نواس قد أجاد فيه إجادة لا بأس بها ، ولو أنك أردت أن تتبين فلسفة أبى نواس ، لما استطعت إلا أن تقول : إن أبا نواس كان يزدرى الحياة ، ويسخر منها » ، ويرى د. طه حسين - أيضا - أن أبا نواس يشبه أبا العلاء المعرى فى ذلك مع فارق هو أن أبا نواس مشرق مبتسم ، فى حين كان أبو العلاءعابسا مكتئبا ، وتدهش لأن أبا نواس رجل لذة وخمور ، فى حين كان أبو العلاء رجل زهد وحرمان ، ومع ذلك فأبو نواس يشبه بأبى العلاء ، كلاهما كان يزدرى الحياة ، وكلاهما كان يمقتها مقتا شديدا ، وكل ما بينهما من الفرق أن أبا نواس كان يكره الحياة فيستعين عليها بالزهد والحرمان »[٩٧] .

ومن العسير أن نضع أبا نواس فى قائمة المتشائمين ، حين يقسمهم د. طه حسين « إلى قسمين ، متشائم يضحك ويلهو ، ومتشائم يعبس ويبكى وهم جميعا متشائمون » وعلى هذه القاعدة كأن البشر جميعا متشائمون ، فهم إما يضحكون وإما يبكون ، فليست الحياة كما عللها د. طه حسين فى تبريره لمجون أبى نواس وزهده « بأنها شئ ليس بذى خطر ، لم تنشأ من خير ، ولن تنتهى إلى خير ، فلتقضى فى لعب ولهو ، أو فى حكمة وزهد »[٩٨] .

ويرى د. طه حسين أن أصدق حكم ممكن فى أبى نواس « أنه تجاوز حدود الاسلام ، وازدرى أصوله ، وقواعده ، غير مرة فى حياته الطويلة ، ولنقل أن شعره فى الزهد آية على أنه تاب غير مرة أيضا »[٩٩] .

ومن غير الممكن أن يعلل مجون أبى نواس قبل زهده ، باعتماده على عفو الله وغفرانه ، فهذا من أصول الاعتقاد عند بعض عناصر الشيعة المتطرفة ، فيقول طه حسين فى ذلك « أن

---

(٩٦) د. طه حسين - حديث الأربعاء ٢ / ١٢٩ .
(٩٧) د. طه حسين - حديث الأربعاء ٢ / ١٣٧ .
(٩٨) د. طه حسين - حديث الأربعاء ١٣٧ .
(٩٩) د. طه حسين - حديث الأربعاء ١٤٤ .

أبا نواس كان ماجنا ، مجاهرا بالمجون ، متمتعا باللذة ، يعتمد على شئ واحد هو عفو الله » .

ويرى على الزبيدى أن أبا نواس كان ماجنا سكيرا ، وكان شعره من خير ما نظم فى فنون المجون ، ولا يرى الزبيدى فى أبى نواس زاهدا « أو على الأقل زهد فى أى فترة من فترات حياته ، فكيف يمكن أن ينظم فى الزهد ، زد على هذا أن كثيرا من شعره يدل على استهتاره بالدين ، واستخفافه بالفقهاء والعلماء »[١٠٠] .

ولقد جانب الزبيدى الصواب حين رأى أن زهديات أبى نواس « ربما كانت من صنع بعض الزهاد ، بقصد اختلاق الأمثال للعبرة وقوة التأثير » .

وما الذى يدفع الزهاد إلى أن يضعوا شعرا فى الزهد على لسان أبى نواس ؟ ومن هم هؤلاء الزهاد ؟ وهل كانوا شعراء ؟ وما الشعر الذى وضعوه ؟ وما الدليل العلمى والتاريخى على هذا ؟ .

لقد كان أبو نواس صادقا فى مجونه ، وكان صادقا فى توبته ، وفى محاولاته المتعددة للتوبة ، ولقد تطابق شعره فى كل مرحلة مع حالته ونفسيته ، ولم يكن أبو نواس يمثل نظرات فلسفية ، أو رؤية فكرية ، تحتاج إلى تأويل أو تفسير ، إنما كان يصدر فى زهده عما يؤمن به ، فى بساطة ووضوح وفى صدق ، وزهديات أبى نواس لم تخل - مع ذلك - من عواطف دينية وأفكار زهدية ، وتأملات فى الحياة والموت ، قد تكون سطحية وقد تكون عميقة .

ويرى النويهى « أن مجاهرة أبى نواس بالأثم سببها اندفاع هستيرى تحذوه الرغبة فى التشهير بالنفس والانتقام منها ومحاولة فى التغلب على عمق شعوره بالذنب »[١٠١] وفى أخبار أبى نواس « أنه كان محافظا على صلواته إلا أنه يسكر ، وكان يقضى ما يفوته منها حين يفيق من سكره »[١٠٢] .

ويعقد المقدسى مقارنة بين زهد أبى العتاهية وزهد أبى نواس ، وهى قريبة من تلك المقارنة التى عقدها د . طه حسين بين أبى نواس وأبى العلاء ، فيرى المقدسى « أن أبا نواس وأبا العتاهية كلاهما متشائم ، هذا فى زهوه وسروره ، وذاك فى تزهده وتقتيره ، أبو نواس لم يدرك قيمة الحياة ولم يفهم مراميها العالية ، فأنفق نفسه وهواه فى سفائفها . وأبو العتاهية أخطأ الغاية من وجود الفرد ومن علاقاته بالمجتمع ، فنعى عليه ذلك ودعاه إلى نبذ الدنيا والاهتمام بالآخرة »[١٠٣] .

---

(١٠٠) على الزبيدى - زهديات أبى نواس ٢٥ / ٢٦ .
(١٠١) النويهى - نفسية أبى نواس / ٢٠٩ .
(١٠٢) أبو هفان - أخبار أبى نواس / ٤٩ .
(١٠٣) أنيس المقدسى / ١٦٠ .

ويرى المقدسى - أيضا - أن كليهما مخطىء ، ذلك لإفراطه فى أباطيلها وهو أبو نواس ، وهذا لإفراطه فى التزهيد بها .

وتروى بعض مصادر الأدب آراء الشاعرين فى زهد كل منهما ، ومن ذلك قول اسحق بن ابراهيم الموصلى الذى جاء فيه « اجتمع عندى أبو نواس وأبو العتاهية ، وكل واحد منهما لا يعرف صاحبه ، فعرفت أبا العتاهية بأبى نواس فسلم عليه وجعل أبو نواس ينشد من سفساف شعره ، فاندفع أبو العتاهية فانشد فجعل أبو نواس يقول هذا والله المطمع الممتنع ، فقال له أبو العتاهية هذا القول والله منك أحسن من كل ما انشدت كيف البيت الذى مدحت به الرشيد :

قد خفتك ثم أمنتى من أن أخافك خوفك الله

لوددت أنى كنت سبقتك إليه ، وزاد ابن الانبارى فى روايته بعد هذا البيت :

فعفوت عنا عفو مقتدر حلت به نعم فألغاها

وجاء أبو العتاهية إلى دكان وراق ، فتحدث معه ، ثم ضرب بيده إلى دفتر فكتب فيه :

أبا عجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد
ولله فى كل تحريكة وتسكينة أبدا شاهد[١٠٤]

ثم ألقاه ونهض فلما كان الغد جاء أبو نواس ، فجلس ثم ضرب بيده إلى الدفتر فرأى الأبيات فقال أحسن والله قائله ، قاتله الله ولددت أنه لى بجميع ما قلت ، فقلنا هو لأبى العتاهية ، فقال هو أحق به ، ثم أخذ الدفتر وكتب :

سبحان من خلق الخلق من ضعيف مهين
يسوقه من قرار إلى قرار مكين
يحور شيئا فشيئا فى الحجب دون العيون
حتى بدت حركاتى مخلوقة من سكون

فلما عاد أبو العتاهية نظر فيه فقال أحسن قاتله الله ، ولددت أنها لى بجميع ما قلت ، وما أقول ثم قال لمن هى فقيل لأبى نواس »[١٠٥] .

لقد أبدى كل منهما إعجابه بشعر الآخر ، فى الزهد ، ولقد اتسم زهد كل واحد منهما بخصائص فنية ، تنم عن شخصية قائله ، فعرف أبو العتاهية بتصوير البؤس والشقاء والتخاذل والترهيب والموت ، وكان الحزن يطفو على زهده ، وعرف أبو نواس بالاعتراف

---

(١٠٤) ابن عساكر - ت دمشق ٤ / ٢٢٧ .
(١٠٥) المصدر السابق ٤٠ / ٢٧٨ .

بالذنب والندم والتوبة والاستغفار ، فكان زهده أكثر إيجابية ، من زهد أبى العتاهية بالرغم من كثرة زهديات أبى العتاهية .

ومن الشعراء التائبين من عرف بالخوف ومن عرف بالأمل ، ومن عرف بالايجابية فى زهده ومن عرف بالسلبية ، وقد سيطر عليهم جميعا الإحساس بالطمع فى رحمة الله ، والطمع فى غفرانه ، بعد أن تابوا واستغفروا بعد ما أسرفوا على أنفسهم ، متمثلين بقوله تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا » .